السودان بعد سقوط الفاشر: خرائط السيطرة ومعنى "النصر" في حرب مدن منهَكة

1. مقدمة

اندلع الصراع المسلح بين القوات المسلحة السودانية (الجيش الحكومي) وقوات الدعم السريع (الميليشيا شبه النظامية بقيادة محمد حمدان دقلو "حميدتي") في أبريل 2023، وسرعان ما تحول إلى حرب أهلية شاملة على السلطة. وقد خلّفت هذه الحرب عشرات الآلاف من القتلى وأكثر من 12 مليون نازح داخل السودان، فضلاً عن أسوأ أزمة إنسانية في العالم حالياً من حيث عدد المحتاجين للإغاثة. ومنذ اندلاعها، تركزت أعنف فصول الحرب في العاصمة الخرطوم ومناطق دارفور غرب السودان. إقليم دارفور وحده يمثل نحو ربع مساحة السودان ويضم خمس ولايات كبيرة؛ وقد عانى تاريخياً من نزاعات ذات طابع إثني منذ عام 2003. في خضم الحرب الراهنة، برزت مدينة الفاشر – عاصمة ولاية شمال دارفور – كنقطة محورية. فقد كانت آخر معقل حضري مهم يسيطر عليه الجيش في دارفور، وبسقوطها أواخر أكتوبر 2025 بات الإقليم الغربي بأكمله تحت سيطرة قوات الدعم السريع.

هذا البحث محاولة لفهم ما بعد سقوط الفاشر — لا كحدث ميداني فحسب، بل كرمز لانعطافة تاريخية في مسار السودان الحديث. إنه يقرأ دلالات الانهيار، ويقيس أبعاد "النصر" المزعوم في حربٍ تستهلك مدنها وسكانها معًا، ويحلل كيف أعاد هذا السقوط رسم خطوط السيطرة، وتبدلت أوراق التفاوض، وتفجرت الانقسامات الإثنية، حتى غدت دارفور مسرحًا مفتوحًا لأكبر مأساة إنسانية في القرن الإفريقي الحديث. وبين ركام المدن وحروب السرديات، يبقى السؤال المركزي معلّقًا: هل ما يزال في السودان متسعٌ لفكرة الدولة، أم أن سقوط الفاشر كان الإعلان الفعلي عن انقسامها إلى أبدٍ جديد؟

2. المشهد الراهن – لماذا كان سقوط الفاشر نقطة انعطاف؟

مثل سقوط مدينة الفاشر حدثاً محورياً في سياق الحرب السودانية الحالية. فقد كانت الفاشر آخر معقل حضري كبير للجيش في إقليم دارفور غرب السودان، وبسقوطها اكتملت سيطرة قوات الدعم السريع على عواصم الولايات الخمس للإقليم. أعلن الجيش السوداني بقيادة الفريق عبد الفتاح البرهان انسحاب قواته من الفاشر بالكامل يوم 27 أكتوبر 2025 بعد معارك طاحنة، مبرراً ذلك برغبته في حماية المدنيين من المزيد من الدمار وسفك الدماء. جاء سقوط المدينة عقب حصار خانق استمر لأكثر من 18 شهراً قطع خلاله الدعم السريع جميع خطوط الإمداد عن الفاشر. عانى نحو ربع مليون مدني كانوا محاصرين داخل المدينة من الجوع والقصف اليومي، حتى باتت الفاشر رمزاً لـ "مسرح حرب إبادة بطيئة" على حد وصف شهود عيان. وقد وثقت المنظمات الحقوقية والأممية هذه الأوضاع المروعة: انتشار المجاعة والأمراض، وتحول المستشفيات إلى أنقاض، وانقطاع كامل للخدمات الأساسية (Washington Post, 2025; Reuters, 2025).

إن استيلاء قوات الدعم السريع على الفاشر يُعد انتصاراً عسكرياً كبيراً لها كونه أزال آخر موطئ قدم للجيش في الغرب، بيد أنه قد يشكل نقطة انعطاف خطيرة نحو تقسيم فعلي للبلاد على أساس جغرافي. ترى تحليلات مستقلة أن إحكام سيطرة الدعم السريع على دارفور يمهد لترسيخ إدارة موازية هناك، معززةً بفصل شطري السودان (الشرق مقابل الغرب) ميدانياً. وقد شبه مسؤولون دوليون

هذا السيناريو بما حدث في ليبيا حين انقسمت بين حكومتين في الشرق والغرب بعد نزاع مسلح. إلى جانب ذلك، حذرت الأمم المتحدة مراراً من أن دخول الدعم السريع إلى الفاشر قد يعقبه أعمال انتقام عرقي واسعة النطاق ضد السكان. وبالفعل، فور سقوط المدينة وردت تقارير مروعة عن إعدامات ميدانية وعمليات قتل جماعي ارتكبها مقاتلو الدعم السريع بحق مدنيين فارين ومختبئين (Reuters, 2025; Al Jazeera, 2025).

سقوط الفاشر بالتالي شكل نقطة تحول لأنه غيّر ميزان السيطرة الميدانية جذرياً لصالح قوات الدعم السريع وأظهر عجز الجيش عن الحفاظ على وجوده في دارفور. كما أنه أطلق شرارة موجة جديدة من الانتهاكات التي اعتبرتها جهات دولية جرائم حرب وربما تطهيراً عرقياً، مما زاد الضغط على المجتمع الدولي للتحرك. وفي الوقت نفسه، رفع هذا التطور تكلفة استمرار الحرب بالنسبة للطرفين، حيث بات واضحاً أن من يمتلك القوة على الأرض اليوم – كالدعم السريع في الغرب – سيحاول فرض شروطه في أي تسوية قادمة. من هنا يتضح أن الفاشر لم تكن مجرد مدينة سقطت، بل منعطف استراتيجي أعاد رسم خريطة الصراع السوداني ووجّه بوصلة التفاوض واتجاهات المستقبل (Reuters, 2025; Daily Sabah, 2025).

3. "النصر" في حرب المدن – سيطرة على الأرض أم إخضاع للسكان؟

أثبتت معركة الفاشر وغيرها من معارك المدن في السودان أن تحقيق انتصار عسكري لا يعني بالضرورة بسط إدارة فعلية أو استقرار الأوضاع. فقد سيطرت قوات الدعم السريع على مدينة الفاشر عسكرياً، لكنها ورثت مدينة منهارة الخدمات والبنى التحتية، ويعاني سكانها ما يشبه الكارثة الإنسانية. يقدّر أن نحو 70% أو أكثر من سكان الفاشر فرّوا أو قُتلوا خلال فترة الحصار والمعارك – إذ تشير الأمم المتحدة إلى أن ما يفوق 600 ألف شخص نزحوا من الفاشر ومحيطها في الأشهر الـ16 التي سبقت سقوطها، ولم يبق داخلها عند سقوطها سوى حوالي 250 ألف مدني في حالة يرثى لها. هذه الأعداد الضخمة من النازحين تعني أن المدينة باتت شبه خالية من القوة العاملة والموظفين اللازمين لتسيير شؤونها (The Washington Post, 2025).

بالإضافة إلى ذلك، انعدمت الخدمات الأساسية في الفاشر تماماً. فقد تعرضت معظم المستشفيات والمرافق الصحية للتدمير أو الإغلاق طوال الحصار نتيجة القصف المتكرر وانعدام الإمدادات. وبحلول أكتوبر 2025 لم يبقَ قيد الخدمة سوى مستشفى واحد (مستشفى السلاح الطبي السعودي) يعمل بجزء من طاقته رغم افتقاره للكوادر والمعدات، قبل أن يتعرض هو الآخر لهجوم مروع أثناء اجتياح الدعم السريع للمدينة. وعلى صعيد التعليم والقضاء والإدارة المحلية، فمن المعروف أن دوائر الدولة في دارفور توقفت عن العمل كلياً منذ شهور الحرب الأولى. لم تُصرف رواتب الموظفين منذ أكثر من عام، وغادر معظم القضاة والموظفين الحكوميين إما نزوحاً أو فراراً من انعدام الأمن. وبالتالي تحولت الفاشر إلى مدينة بلا حكومة ولا قانون بالمعنى الفعلي، رغم وجود قوة عسكرية تسيطر على أرضها (The Washington Post, 2025; Reuters, 2025).

إن هذا الوضع يثير تساؤلاً جوهرياً: هل تحقق قوات الدعم السريع نصراً حقيقياً بمجرد رفع رايتها على أنقاض مدينة مدمرة؟ يرى العديد من المراقبين أن السيطرة العسكرية على الأرض لا تعني السيطرة الإدارية أو كسب ولاء السكان. ففي حالة الفاشر، حتى الآن، تشير التقارير إلى انعدام أي إدارة مدنية فعالة تحت حكم الدعم السريع. فالمدينة منهكة ومستنزفة اقتصادياً لدرجة أن أسواقها شبه خاوية. خلال الحصار، ارتفعت أسعار الغذاء إلى مستويات فلكية – وصل سعر كيلوجرام الدقيق أو السكر إلى نحو 80 دولاراً بينما كان متوسط الراتب الشهري قبل انقطاعه 70 دولاراً فقط. ومع انهيار الأسواق، اعتمد من تبقى من الأهالي على مبادرات تطوعية بحتة: أربعة مطابخ شعبية يديرها متطوعون كانت تطهو وجبة وحيدة يومياً من قليل ما يتوافر من حبوب، لكنها بدورها

تعرضت للقصف أكثر من مرة وقتل بعض المتطوعين فيها. مثل هذه الظروف تعني أن إدارة مدينة كالفاشر أصبحت عبئاً على أي قوة تسيطر عليها بدلاً من أن تكون مكسباً. فسكانها إما نازحون محتاجون أو ناقمون فقدوا الثقة بكل من تسبب بمعاناتهم (The Guardian, 2025).

علاوة على ذلك، يواجه الدعم السريع تحدياً أمنياً داخل المناطق التي سيطر عليها: كيف سيفرض النظام والقانون؟ تشير شهادات من الفاشر إلى أن المدينة غارقة في الفوضى، حيث لا وجود لشرطة أو قضاء، بل تنتشر مجموعات مسلحة متعددة الولاءات. وتفيد أنباء بأن الدعم السريع حاول تجنيد عناصر من أهالي المدينة للعمل كإدارة مدنية موالية له، لكن معظم الكفاءات إما فرت أو ترفض التعاون معه خشية الانتقام لاحقاً. كما أن فرض الأمن يبدو شكلياً؛ فمعظم الأحياء مهجورة أو مدمرة، ولا تزال عمليات النهب والاعتداءات تقع في ظل غياب أي محاسبة. بمعنى آخر، "النصر" الذي حققه الدعم السريع في الفاشر هو نصر بالسلاح لا بالبناء أو الحكم. وقد اعترف مسؤولون في الدعم السريع ضمنياً بذلك عندما سارعوا إلى الإعلان أن أولويتهم هي تأمين ممرات لخروج المدنيين وتسليم الأسرى بدل الحديث عن إدارة المدينة (Reuters, 2025).

إن الحالة في الفاشر تلقي الضوء على نمط أوسع في حرب السودان الحالية: انتصارات حرب المدن غالباً ما تكون انتصارات تدميرية. فالجيش نفسه عندما استعادت قواته مناطق في الخرطوم سابقاً، وجدت عاصمة مدمرة وخالية من معظم سكانها، ولم تستطع إرساء حياة طبيعية فيها. وينطبق الأمر بشكل أوضح على الدعم السريع في دارفور. وبالتالي، يخلص بعض الخبراء إلى أن الطرفين يملكان مهارة التدمير أكثر من القدرة على الحكم. ويبقى المدنيون هم الخاسر الأكبر الواقعين بين مطرقة القصف والحصار وسندان الفراغ الإداري والأمني. ما حدث في الفاشر يطرح سؤالاً أخلاقياً واستراتيجياً: أي جدوى لـ"النصر" العسكري إذا كان ثمنه مدينة أشبه بالمقبرة وسكانها إمّا أموات أو مشردون أو مشرفون على الهلاك؟ الإجابة الواضحة هنا أن السيطرة على الأرض تختلف جذرياً عن كسب السلام وإدارة المجتمع – وهذا ما يجعل تسوية النزاع عبر التفاوض أكثر إلحاحاً، كما سنناقش تالياً.

4. مسارات التفاوض بعد الفاشر – أوراق القوة والتنازلات المحتملة

بعد سقوط الفاشر، تبدلت حسابات التفاوض لدى الأطراف المتحاربة كما تبدلت موازين القوى. يمكن القول إن كلفة استمرار الحرب والتفاوض قد "أعيد تسعيرها" إثر هذا التطور؛ فكل طرف يمتلك الآن أوراقاً جديدة يحاول من خلالها تحسين موقفه التفاوضي وفرض شروطه. فيما يلي تحليل أوراق القوة لكل من قوات الدعم السريع، والجيش السوداني، وكذلك القوى المدنية والوسطاء في مرحلة ما بعد الفاشر:

أولا: قوات الدعم السريع (RSF):

خرجت هذه القوات من معركة الفاشر بأكبر مكاسب ميدانية منذ اندلاع الحرب، فهي الآن تسيطر على كتلة إقليمية غربية متصلة وحدود دولية مفتوحة. إحكام القبضة على دارفور يمنح الدعم السريع عدة مزايا تفاوضية: أولها قاعدة موارد بشرية وجغرافية واسعة للتجنيد والتعبئة. فدارفور من أكثر أقاليم السودان كثافة سكانية (قرابة ربع سكان البلاد قبل الحرب)، وقد باشرت قوات الدعم السريع فعلاً في استقطاب وتجنيد شباب من الإقليم لتعويض خسائرها (Reuters, 2025).

ثانيها موارد طبيعية واقتصادية مهمة باتت تحت يدها، وعلى رأسها مناجم الذهب في دارفور التي يُعتقد أن الدعم السريع يستفيد منها مالياً منذ ما قبل الحرب. كذلك طرق التهريب والتجارة عبر الحدود الغربية (تشاد وليبيا وجمهورية إفريقيا الوسطى) أصبحت شرايين

يسيطر عليها الدعم السريع تماماً. وهذا يتيح له الوصول إلى أسواق السلاح (خاصة في جنوب ليبيا) والحصول على الوقود والإمدادات من دول مجاورة أو عبرها. بالفعل، حذر مسؤولون أمميون من أن تدفق الأسلحة الخارجية للدعم السريع – الذي تُتهم الإمارات بتزويده بها مثلاً – يطيل أمد الحرب ويقوّي موقفه. الورقة الثالثة والأبرز بيد الدعم السريع هي التهديد بمواصلة التقدم شرقاً. فالقادة العسكريون في الدعم السريع يصرحون علناً بأن هدفهم التالي بعد دارفور هو السير نحو الخرطوم ثم بورتسودان. ورغم الصعوبات اللوجستية لهذا الهدف، إلا أنه ورقة ضغط جدية لإرباك حسابات الجيش واستنفاره للدفاع، مما قد يدفع الوسطاء لمحاولة كبح الدعم السريع عبر عروض تفاوضية قبل أن ينقل الحرب لمناطق جديدة (Reuters, 2025).

ثانيا: القوات المسلحة السودانية (الجيش):

بالرغم من الخسارة الفادحة في دارفور، لا يزال الجيش يمتلك بعض عناصر القوة المهمة على طاولة التفاوض. أولها الشرعية السياسية والاعتراف الدولي النسبي. فمعظم الدول والمنظمات لا تزال تتعامل رسمياً مع الجيش وقيادته (البرهان) باعتباره السلطة السيادية في السودان، وتدين تمرد الدعم السريع. هذه الشرعية تُترجم إلى دعم دبلوماسي ومناشدات لصالح الجيش في المحافل الدولية، وحتى تعطيل أي محاولات لمنح الدعم السريع وضعاً سياسياً مكافئاً.

العنصر الثاني هو السيطرة على الموارد السيادية والمنافذ الاستراتيجية. فالجيش يسيطر على المجال الجوي عبر سلاح الطيران – فرغم صعوبة استخدامه داخل المدن بسبب الدفاعات الجوية للمتمردين، يظل الطيران ورقة ردع قوية بيده. كما يسيطر الجيش على ميناء بورتسودان على البحر الأحمر الذي يعد شريان الحياة للسودان لاستيراد السلع والمساعدات. هذا الموقع يتيح للجيش استقبال دعم لوجستي وعسكري من حلفائه الإقليميين عبر البحر (مثل مصر والسعودية) دون قدرة الدعم السريع على منعه. كذلك يحتفظ الجيش بوجود في مناطق الثقل السكاني في وسط السودان وشرقه (كسلا، الجزيرة، نهر النيل، الشمالية)، ما يعني أنه يمكنه حشد المجندين وإعادة تنظيم صفوفه من تلك الولايات الأقل تضرراً بالحرب (Council on Foreign Relations [CFR], 2025).

يسيطر الجيش على العاصمة الفعلية (بورتسودان) ومعظم مؤسسات الدولة المركزية وأصولها المالية. كذلك يسيطر على المناطق المنتجة لمعظم دخل السودان حالياً (مثل صادرات الذهب الرسمية عبر مطار بورتسودان، وتجارة الماشية عبر البحر الأحمر). هذه السيطرة تتيح له خنق الدعم السريع اقتصادياً عبر منع الإيرادات عن المناطق المتمردة، وإن كان الدعم السريع يرد بالاعتماد على التمويل الذاتي عبر التهريب والموارد غير المشروعة. ومن الناحية العسكرية، ورغم إنهاك الجيش، إلا أنه يتلقى دعماً ضمنياً من قوى إقليمية كبرى: فمصر تقف معه سياسياً وتخشى من انتصار قوات مدعومة من خصومها، والسعودية توازن لكنه يهمها استقرار البحر الأحمر بيد جهة نظامية. حتى إيران وتركيا ذُكر أنهما قدمتا دعم لوجستي (وفق بعض التقارير) لتعزيز موقف الجيش. هذا الدعم الخارجي قد لا يكون حاسماً عسكرياً لكنه يمنع انهيار الجيش تماماً (Daily Sabah, 2025).

الورقة الثالثة للجيش هي تحالفاته مع فصائل مسلحة محلية وأجنبية. فهناك جماعات قبلية وأخرى إسلامية انحازت للجيش (مثل قوات درع السودان وكتائب ظلال الإسلاميين) قاتلت معه في كردفان (Sudans Post, 2025). أيضاً يلقى الجيش دعماً غير مباشر من جماعات متمردة في جنوب كردفان والنيل الأزرق (مثل الحركة الشعبية شمال – الحلو) بحكم عدائها المشترك للدعم السريع. هذه التحالفات تعزز موقف الجيش وتشتت خصومه على جبهات متعددة.

أوراق القوة التي يملكها كل طرف سترسم حدوده في التفاوض. فالدعم السريع سيسعى مستفيداً من سيطرته على دارفور إلى الاعتراف به كطرف سياسي مكافئ للجيش وربما المطالبة بترتيبات حكم ذاتي أو فيدرالي في الإقليم الغربي لضمان نفوذه. في المقابل، الجيش سيستخدم ورقة الشرعية الدولية لمحاولة نزع صفة التمرد عن الدعم السريع وإظهاره كميليشيا يجب تفكيكها أو دمجها بشروط صارمة، مراهناً على إرهاق الدعم السريع في إدارة دارفور المنكوبة. وبينهما سيضغط الوسطاء لفرض حلول وسط ربما تشمل إبعاد القادة الرئيسيين (حميدتي والبرهان) عن المشهد كترضية متبادلة، والدفع نحو حكومة مدنية انتقالية تستوعب المستوى الأدنى من القيادات المقبولة من الطرفين. وبالفعل، برز طرح "لا غالب ولا مغلوب" كمخرج، بحيث لا ينتصر أحد عسكرياً بل تُجمّد الأوضاع ويتجه السودان لمرحلة تفاوض وتقاسم سلطة مؤقتة. غير أن كل هذه المسارات مشروطة بوقف نزيف الدم أولاً وضبط الوضع الأمني، وهو تحدٍ سنناقش عقباته ضمن محور التقسيم والأمر الواقع. إجمالاً، لقد رفع سقوط الفاشر سقف المطالب لدى الدعم السريع وأدخل الجيش في موقف دفاعي، لكنه أيضاً دفع المجتمع الدولي نحو تحركات أكثر حزماً لوقف الحرب. ومن يملك القوة اليوم (على الأرض أو دبلوماسياً) سيسعى بالتأكيد لفرض شروطه غداً على طاولة التفاوض (Daily Sabah, 2025).

5. البعد الإثني والانتقام الجماعي

لطالما كان البعد الإثني حاضراً في نزاعات دارفور منذ 2003، حيث واجهت جماعات إثنية أفريقية (كالفور والزغاوة والمساليت) استهدافاً ممنهجاً على يد ميليشيات عربية مدعومة حكومياً (جنجويد) أثناء حرب دارفور الأولى. ويبدو أن الحرب الحالية أعادت إحياء هذه الاصطفافات الخطيرة ولكن بصورة أشد فتكاً وفي نطاق أوسع جغرافياً. فقد تواترت التقارير منذ منتصف 2023 عن فظائع ذات طابع عرقي ارتكبتها قوات الدعم السريع وحلفاؤها في دارفور، خاصة في غرب دارفور (الجنينة) وأخيراً في شمال دارفور (الفاشر وما حولها). ومع سقوط الفاشر، تصاعدت المخاوف من حدوث انتقام جماعي ضد مجموعات إثنية معينة يُنظر إليها كحاضنة للجيش أو معارضة للدعم السريع.

وبالفعل، ما إن دخلت قوات الدعم السريع مدينة الفاشر حتى ظهرت دلائل على استهداف عرقي منظم للسكان. شهود عيان أفادوا عن قيام مقاتلي الدعم السريع بعمليات إعدام ميدانية على أساس الهوية القبلية: رجال يُسألون عن انتماءاتهم القبلية عند نقاط التفتيش، ومن يُشتبه بانتمائه لقبائل الفور أو الزغاوة يجري التعامل معه بعنف. كما انتشرت مقاطع مصورة يظهر فيها مقاتلون يطلقون شتائم ذات طابع عنصري ضد محتجزين من سكان الفاشر.

وقد حذّر نشطاء محليون منذ شهور من أن الدعم السريع يضمر نية الانتقام من قبيلة الزغاوة تحديداً في شمال دارفور، لأن العديد من جنود الجيش الحكومي والقوات المتحالفة معه هناك ينحدرون منها. وقد تحقق جزء من هذه المخاوف بعد الفاشر؛ إذ تحدث حاكم إقليم دارفور مني مناوي (وهو نفسه من الزغاوة ومنحاز للجيش) عن "مذابح مروعة" وقعت، مقدِّراً أن أكثر من 2,000 مدني أعدموا خلال يومي 26 و27 أكتوبر بالفاشر جلّهم من النساء والأطفال والشيوخ. ورغم صعوبة التحقق المستقل من هذا الرقم الكبير، إلا أن صور الأقمار الصناعية التي نشرها مختبر الأبحاث الإنسانية في جامعة ييل أظهرت "مجموعات من الأجسام البيضاء محاطة ببقع حمراء" في باحة مستشفى السلاح الطبي بالفاشر، ما فسّره الخبراء بأنه جثث بشرية مع دماء حولها بكميات كبيرة. هذا دليل مادي يدعم روايات وقوع مجزرة هناك، مع الإشارة إلى أن المستشفى كان يأوي جرحى مدنيين وعسكريين من قبائل مختلفة. وأكدت منظمة العفو الدولية وكذلك مفوض الأمم المتحدة السامي لحقوق الإنسان فولكر تورك وجود "تقارير موثوقة عن إعدامات جماعية ذات دوافع إثنية" في الفاشر (Al Jazeera, 2025; Daily Sabah, 2025).

توسعت دائرة الانتقام الجماعي أيضاً لتشمل مناطق أخرى في دارفور قبل سقوط الفاشر. فمثلاً، شهدت مدينة الجنينة (عاصمة غرب دارفور) في يونيو 2023 واحدة من أكبر المجازر حيث قتل المتمردون وحلفاؤهم حوالي 1000 من أبناء قبيلة المساليت خلال أيام، فيما وصفته الأمم المتحدة بأنه "تطهير عرقي". وفي الفاشر نفسها، هناك مخاوف من مصير مماثل لآلاف النازحين في مخيم زمزم (جنوب الفاشر) الذي كان يضم أساساً نازحين من قبائل إفريقية. وكان الدعم السريع قد اجتاح ذلك المخيم قبل سقوط الفاشر وأحرق أجزاء منه. وقد قال نشطاء إن ما حدث في زمزم كان "بروفة تطهير عرقي" تسبق دخول الفاشر، إذ هاجم المسلحون المخيم بناءً على هوية قاطنيه. ولمّا تم ذلك بلا عقاب، تشجعوا على تكرار الأمر في المدينة (Daily Sabah, 2025).

ولم يكن البعد الإثني حكراً على جرائم الدعم السريع، رغم أنه الأبرز. فقد سُجلت أيضاً حالات انتقام مضاد في مناطق يسيطر عليها الجيش ضد مدنيين من قبائل عربية يُشتبه بدعمهم للدعم السريع، وإن كانت أقل بكثير. كما انتشرت لغة الكراهية والتحريض الإثني في بيانات كلا الطرفين. فعبد الفتاح البرهان وصف الدعم السريع بعد مجازر الفاشر بأنهم "مجرمون سيرد عليهم الشعب السوداني كله"، وتوعد بـ"الثأر لما حدث في الفاشر". مثل هذا الخطاب – وإن كان مفهوم الغضب فيه – قد يؤجج تحركات انتقامية أهليّة ضد قبائل يُنظر لها كحاضنة للدعم السريع (كقبيلة الرزيقات التي ينتمي لها حميدتي). وبالفعل حدثت بعض الاشتباكات القبلية شرقاً في كسلا والنيل الأبيض بين مجموعات على خلفيات انتماءات للصراع، وهذا ناقوس خطر من امتداد الحرب الإثنية خارج دارفور (Al Jazeera, 2025).

خلاصة القول، الصراع السوداني الحالي يوشك أن يتحول إلى صراع إثني شامل إذا لم يوضع حد عاجل له. دارفور مرة أخرى على شفا هاوية التطهير العرقي ولكن هذه المرة في مدن كبيرة وليس فقط قرى نائية كما 2003. والفارق المأسوي أن المجتمع الدولي الذي تدخل حينها (ببعثة أممية لحفظ السلام) غائب الآن فعلياً، مما جعل المتورطين أكثر جرأة ووحشية. لذلك، يؤكد الخبراء أن أي اتفاق سلام يجب أن يتضمن آليات واضحة للعدالة الانتقالية وحماية الفئات الإثنية المستهدفة، وإلا فإن جروح الإبادة ستعمق الشقاق لعقود. وكما قال فولكر تورك: "الخطر يشتد كل يوم بحدوث انتهاكات واسعة النطاق بدوافع إثنية... علينا التحرك فوراً". إن وأد دوامة الانتقام الجماعي ضرورة ليس فقط لأسباب إنسانية، بل أيضاً لمنع انهيار ما تبقى من نسيج اجتماعي يؤلف السودان كوطن متنوع الأعراق (Al Jazeera, 2025; Daily Sabah, 2025).

6. الإعلام والسرديات – من يملك القصة يملك الشرعية

في خضم حرب متعددة الجبهات كهذه، لا تقل معركة الروايات والإعلام أهمية عن المعارك العسكرية. يسعى كل طرف إلى السيطرة على سردية الأحداث وتقديم نفسه كصاحب القضية العادلة والشرعية، مما يكسبه التعاطف الداخلي والخارجي. وقد اتخذت حرب السودان طابعاً إخبارياً بالغ التعقيد بسبب انقطاع الاتصالات وغياب الصحافة المستقلة عن مواقع الأحداث، الأمر الذي جعل المعلومة سلاحاً بحد ذاته. وكما يقال، "من يملك القصة يملك تأييد الناس، وبالتالي شرعيته". وفي الحالة السودانية، دارت حرب إعلامية ساخنة موازية للقتال الميداني.

فمن جانب قوات الدعم السريع، ركزت سرديتها على أنها "قوات ثورية تحريرية" تهدف إلى تخليص السودان من هيمنة "العسكر التقليديين" وإقامة "سودان جديد" على حد قولهم. ومع سقوط الفاشر، ظهر قادة الدعم السريع في مقاطع مصورة وسط قواعد الجيش المستولى عليها وهم يهتفون "السودان الجديد يتقدم، السودان القديم ينهار". عمد الإعلام التابع لهم إلى تصوير السيطرة على الفاشر على أنها "تحرير للمدنيين من قبضة الجيش"، ونشروا مقاطع لجنودهم يوزعون الماء على الأسرى ويزعمون حماية المدنيين أثناء

خروجهم في قوافل. هذه الرواية طبعاً معاكسة تماماً لروايات الشهود عن الانتهاكات، لكنها مهمة للدعم السريع لتجميل صورته أمام أنصاره وأمام العالم (Reuters, 2025).

ولتكريس شرعيته، أعلن الدعم السريع أنه سيشكل حكومة مدنية في دارفور، وحرص على استخدام عبارات مثل "تحرير" في بياناته بدلاً من "سيطرة" أو "احتلال". حتى شعارهم الإعلامي أصبح "جيش التحرير السوداني" في محاولة لربط أنفسهم تاريخياً بالحركات الثورية السابقة. كما لجأوا إلى الترويج لنظريات المؤامرة بأن الجيش مخترق من "الفلول والإسلاميين" وأنهم – أي الدعم السريع – يقاتلون دفاعاً عن الثورة السودانية التي أطاحت بالبشير. هذه السردية تستهدف كسب قطاع من الشارع المدني المعادي للإسلاميين، رغم أن سجل الدعم السريع الدموي يجعل الأمر صعب التصديق.

على الطرف الآخر، خطاب الجيش السوداني وإعلامه ينزع الشرعية بالمطلق عن الدعم السريع عبر وصفهم الدائم بـ"الميليشيا المتمردة" و"الجنجويد". سردية الجيش ترتكز على أنه حامي الدولة ووحدتها وأن ما يقوم به الدعم السريع هو "محاولة انقلاب" مدعومة خارجياً لتفكيك السودان. عقب سقوط الفاشر، ظهر البرهان بخطاب متلفز وصف ما حدث بأنه "تدمير ممنهج وقتل متعمد للمدنيين" من قبل الدعم السريع، وتعهد بالثأر ومعاقبة "هؤلاء المجرمين". هنا رواية الجيش واضحة: الدعم السريع يُصوَّر كقوة غازية همجية ترتكب الإبادة، والجيش هو الممثل الشرعي للدولة حتى لو اضطر للتراجع آنياً (Reuters, 2025; Al Jazeera, 2025).

وسط هاتين الروايتين المتناقضتين، يجد المدنيون والجمهور العام صعوبة بالغة في التحقق من الحقيقة، خصوصاً مع قطع خدمات الإنترنت والاتصالات لفترات طويلة في مناطق القتال. لقد أصبحت دارفور خاصة منطقة سوداء إعلامياً لا يصل منها إلا ما يتبادله الناس عبر الأقمار الصناعية أو التسريبات القليلة. هذا الوضع استدعى استنفار وسائل تحقق بديلة مثل الأقمار الصناعية وتحليل الصور ومقاطع الفيديو من قبل منظمات مستقلة (OSINT). فمثلاً، اعتمدت وكالة رويترز وأسوشييتد برس على تحليل صور بالأقمار الصناعية للتحقق من وقوع مجازر في الفاشر، ولتحديد مواقع مركبات الدعم السريع وتحركاتها. كما استخدمت تقنيات الجيوتموضع (Geolocation) لتفنيد بعض الدعاوى: مثلما حصل عندما نشر مني مناوي فيديو قال إنه لمجزرة المستشفى، فقامت رويترز بتحديد الموقع الحقيقي للفيديو واتضح أنه لمبنى آخر ما أضعف روايته. كذلك أكدت منظمة العفو أنها حللت مقاطع مصورة تُظهر جنود الدعم السريع يعدمون مدنيين، وقارنتها بشهادات على الأرض لتأكيد صحتها. هذا النوع من التحقيق الرقمي أصبح المصدر الأكثر موثوقية لكشف الحقائق في ظل التضليل المتبادل (The Washington Post, 2025).

على الصعيد الإقليمي والدولي، انقسمت التغطية الإعلامية تبعاً لمواقف الدول. فبعض وسائل الإعلام العربية تبنت رواية الجيش وركزت على لفظ "الميليشيا" في وصف الدعم السريع، بينما منصات أخرى كانت أكثر حياداً أو حتى متماهية مع سردية الدعم السريع بعض الشيء. على سبيل المثال، الإعلام الرسمي في الإمارات والسعودية تجنب التغطية المفصلة لجرائم الدعم السريع ربما لاعتبارات سياسية، في حين كانت الجزيرة القطرية مثلاً أكثر جرأة في إبراز مجازر الفاشر وتسمية الدعم السريع كمجرم حرب (Al Jazeera, 2025). مثل هذه التباينات تؤثر على الرأي العام في المنطقة وتنعكس على مواقف الحكومات.

في النهاية، تبدو معركة كسب الشرعية عبر الإعلام طويلة وصعبة. لكن يمكن القول إن انكشاف حجم الفظائع التي ارتكبها الدعم السريع في دارفور مؤخراً أضر كثيراً بسمعته وروايته. فقد توحدت معظم المنظمات الحقوقية والإعلام العالمي حول وصف ما يجري بأنه فظائع غير مقبولة وانتهاكات جسيمة. هذا منح الجيش نقاطاً دعائية، لكنه بالمقابل وضع عليه ضغطاً أخلاقياً هائلاً ليكون

على مستوى وعوده بحماية المدنيين. فإذا استمر الصراع، قد تنهار رواية الجيش أيضاً خاصة إن تورطت قواته في انتهاكات (وقد اتُهم سابقاً بقصف أحياء سكنية في أم درمان مثلاً). من هنا فإن المخرج الحقيقي لكسب شرعية داخلية ودولية هو وقف الحرب وإنهاء معاناة المدنيين، وليس مجرد كسب معركة إعلامية مؤقتة. بيد أن الواقع الحالي يشير إلى أن الطرفين ما زالا يأملان في حسم الرواية بالسلاح أولاً. وحتى يحين تغير ذلك، سيظل الإعلام ساحة حرب ظلال بينهما، يستخدم فيها التضليل أحياناً والحقائق المفزعة أحياناً أخرى كسلاح لتشكيل صورة الانتصار في أذهان الناس (Al Jazeera, 2025; Daily Sabah, 2025).

7. خاتمة

مثّل سقوط الفاشر منعطفاً حاسماً في مسار الحرب السودانية الدامية، إذ أنهى فصل سيطرة الجيش على غرب البلاد وفتح صفحة جديدة أشد خطورة من الصراع. فقد أعاد رسم الخارطة الميدانية بحيث برز شطران متقابلان – أحدهما في الشرق بيد الجيش والآخر في الغرب تحت سيطرة الدعم السريع – على نحو ينذر بتقسيم فعلي إن لم يتم تدارك الأمر سياسياً. وفي الوقت نفسه، كشف سقوط الفاشر وما رافقه من فظائع عن الثمن الإنساني الباهظ لاستمرار الحرب: مدينة مدمرة، ومجازر ذات طابع إثني، ومئات الآلاف من المدنيين بين قتيل ومشرد وجائع

في ظل هذه المعطيات، بات الخيار الوحيد المعقول هو التوجه نحو تسوية سلمية توقف نزيف السودان قبل تمزقه الكامل. صحيح أن المواقف لا تزال متباعدة، لكن الضغط الدولي يتزايد، وبدأت الأصوات الداخلية أيضًا تدرك أن لا منتصر في حرب تُفني الوطن. يُرّجح أن تجميد خطوط القتال عند وضعها الحالي، متبوعاً بترتيبات إنسانية عاجلة، قد يكون الخطوة الأولى نحو الحل (Africa Newsroom, 2025). ثم ينبغي إطلاق حوار سياسي سوداني شامل برعاية إقليمية ودولية يُعالج جذور الصراع ويضمن إبعاد الجيش والمتمردين معاً عن السلطة لصالح حكومة مدنية انتقالية. هذه الرؤية قد تبدو صعبة المنال وسط هدير المدافع، لكنها ليست مستحيلة إذا تضافرت جهود الفاعلين. ولنا في تجارب دولية عبرة: فالحروب الأهلية المعقدة انتهت حين اقتنع المتحاربون بأن "القوة اليوم لا تضمن الهيمنة غداً" وبأن التسوية خير من تقسيم الوطن. والسودان، البلد ذو التنوع الإثني والممتد على مفترق إفريقيا والعالم العربي، لا يحتمل تقسيمه مجدداً أو استمراره ساحة لحرب بالوكالة. لقد دفع المدنيون الثمن الأكبر – كما رأينا في شوارع الفاشر الدامية – وآن الأوان ليحظوا بفرصة للسلام والعدالة.

إن إنقاذ السودان من شبح التفكك والمزيد من المجازر يتطلب إرادة جادة من قياداته العسكرية والمدنية مع دعم صادق من الوسطاء. وسيسجل التاريخ أن سقوط الفاشر كان جرس إنذار أخير: فإما أن يستفيق الجميع لوقف الكارثة وإعادة بناء السودان على أسس جديدة عادلة للجميع، وإما أن ينزلق البلد إلى ظلام مجهول لن ينجو منه أحد. وكما جاءت التحذيرات الأممية: بدون اتفاق وترتيبات عاجلة، ينتظر السودان كارثة إنسانية وسياسية قد تكون غير مسبوقة. الكرة الآن في ملعب الأطراف السودانية لتغليب صوت العقل على أزيز الرصاص، ولدى المجتمع الدولي مسؤولية كذلك ألا يسمح بتكرار سيناريو رواندا أو دارفور 2003 مرة أخرى في الفاشر وأخواتها. فمن يملك القوة اليوم قد يفرض شروط الغد، لكن من يملك الحكمة اليوم هو من سينقذ مستقبل البلاد.

المراجع:

Africa Newsroom. (2025, October 30). *Sudan peace talks: International calls for ceasefire intensify*. https://www.africa-newsroom.com

Al Jazeera. (2025, October 29). *Sudan war: El Fasher's fall sparks calls for urgent peace talks*. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2025, October 30). *Sudan conflict: Reports of ethnic massacres in El Fasher and Darfur*. https://www.aljazeera.com

Al Jazeera. (2025, October 30). *Sudan conflict: Competing narratives between army and RSF*. https://www.aljazeera.com

Council on Foreign Relations (CFR). (2025, October 28). *Sudan's civil war: Mapping the humanitarian cost*. https://www.cfr.org

Daily Sabah. (2025, October 31). *Darfur atrocities deepen as El Fasher falls to RSF*. https://www.dailysabah.com

Daily Sabah. (2025, October 31). *Lessons from global conflicts: Why Sudan must choose peace*. https://www.dailysabah.com

Daily Sabah. (2025, October 31). *Sudan's information war intensifies after El Fasher massacre*. https://www.dailysabah.com

Financial Times (FT). (2025, October 30). *No military solution for Sudan's civil war, say international crisis experts*. https://www.ft.com

Reuters. (2025, October 29). *Satellite images confirm mass killings in El Fasher hospital compound*. https://www.reuters.com

Reuters. (2025, October 29). *Sudan conflict: RSF claims liberation as army vows revenge*. https://www.reuters.com

The Guardian. (2025, October 30). *Inside El Fasher: Starvation and siege in Sudan's forgotten city*. https://www.theguardian.com

The Washington Post. (2025, October 29). *US condemns RSF atrocities as genocide in Sudan's Darfur war*. https://www.washingtonpost.com

The Washington Post. (2025, October 30). *Satellite analysis and OSINT reveal atrocities in El Fasher*. https://www.washingtonpost.com

METRO
for Knowledge

United Nations (UN). (2025, October 31). *Humanitarian coordinator warns of worsening famine in Sudan*. https://www.un.org

United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs (UNOCHA). (2025, October 30). *Sudan Humanitarian Response Plan 2025 update*. https://www.unocha.org

United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs Financial Tracking Service (FTS). (2025, October 30). *Sudan funding status overview*. https://fts.unocha.org

WUNC. (2025, October 28). *Videos show ethnic slurs and violence in Sudan's El Fasher*. https://www.wunc.org

METRO
for Knowledge